﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ [التحريم: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد إفشاء السِّرِّ التَّوبةُ والإنابةُ

لمّا بَيَّنَتِ الآياتُ السّابقة إفشاءَ بعض أزواج النَّبيِّ ﷺ سِرَّه إلى صاحِبَتِها؛ ناسَبَ أن يَتوجَّه الخِطابُ إليهما عِتابًا رفيقًا، فَأعلَمَهُما أنَّ فِعلَهما ليس بمستقيم، وأنَّ قلبَيهما قد مالا عن الحَقِّ الذي يليقُ بمقامهما، فاستوجبَ ذلك التَّذكيرَ والإنذارَ، فجاء الأمْرُ الإلهيُّ صريحًا بالتَّوبة في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ ما صدَرَ عنهما زَلَّةٌ تُطلَب لها الإنابة، وخَطأٌ يُقوَّم بالرُّجوع والتَّوبة[1]، فهو انتقالٌ من ذِكر الحَدَث الخاصِّ بهما، إلى ذِكرِ ما يترتَّب عليه من التَّوبة والإنابة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَغَتۡ﴾: (صغو) أصلٌ يَدُلُّ على المَيلِ[2]، صغا يَصغو ويَصْغي صُغوًّا، أي: مال، وصَغَتِ النُّجومُ؛ إذا مالت للغروب، وأصغَيْتُ الإناء: أمَلْتُه[3]، يُقال: صغا الرَّجلُ؛ إذا مالَ على أحد شِقَّيه، أو انحنَى في قَوسِه[4]، والميلُ إمّا أن يكون عن الحَقِّ[5]، أو إلى الحقِّ، كما في هذه الآية الكريمة، أي: (مالت القلوب إلى الحقِّ)، أو (عن الحقِّ)، كما سيأتي في محلِّه.

(1) زاده، حاشية مُحيي الدّين على تفسير البيضاوي: 8/ 259.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صغا).
(3) الرّاغب، المفردات، والجوهري، الصّحاح: (صغا).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صغو صغى).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 188، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 570.

2) ﴿تَظَٰهَرَا﴾: (ظهر) أصلٌ يَدُلُّ على مَعنَيَين: القوَّة والبُروز، يقال: ظَهرَ الشَّيءُ يَظهَرُ ظُهورًا، فهو ظاهِرٌ؛ إذا انكَشَفَ، وبَرزَ، والأصلُ فيه كُلِّه: ظَهْرُ الإنسانِ، وجَمعُه: أظهُرٌ وظُهورٌ، والظَّهيرُ: المُعينُ، كأنَّهُ أسنَدَ ظَهرَهُ إلى ظَهرِكَ[1]، وتَظاهرَ القومُ: تَعاوَنوا، وظاهَرَه: عاوَنَهُ، و﴿تَظَٰهَرَا﴾ في الآية أصلُهُ: تتظاهَرا، حُذِفت إحدى تاءَيْه تخفيفًا، ومعناه: تَتَعاونا عليه[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّوجيهُ الرَّبّانيُّ الكريمُ لأهل بيتِ النُّبوَّة

وَجَّهت الآيةُ الكريمةُ الخِطابَ بالتَّوبة إلى زوجَي النَّبيِّ ﷺ حفصةَ وعائشةَ ﵄؛ تنبيهًا على أنَّ ما صدَرَ عنهُما ممّا لا يليقُ بحُرمةِ بَيْتِ النُّبوَّة، فقال جَلَّ شأنه: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: إنْ ترجِعا إلى الله تعالى - يا حَفْصةُ وعائشةُ - فقد صدَر منكما ما يوجِبُ التَّوبةَ، فقد مالَت قُلوبُكما عن الحقِّ، ثُمَّ أعقبَ ذلك بتحذيرٍ شديدٍ، فقال: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾، أي: وإن تتَعاوَنا على إيذائه أو مُضايقته، فإنَّ الله وليُّه وناصِرُه دونَكما، ومعهُ جبريلُ، وصالحُ المؤمنين كأبي بكر وعمر ﵃، والملائكةُ مِن بعد هؤلاء جميعًا أعوانٌ له وظُهرٌ يَحمونه، ويَقفونَ دونه، ويَذودونَ عنه، فلا يَضُرُّ الرَّسولَ، تعاوُنُكما عليه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فَصْلِ الآية عَن سابِقَتها:

الانتقالُ مِن سَوْقِ القِصَّة وتمهيدِ الحكاية، إلى مقامِ الوَعظ والتَّأديب

لمّا انقضى صدرُ السّورة بما تَضمَّنه مِن عتابٍ لطيفٍ، وبيانِ ما كان مِن السَّبب المفضي إليه؛ كان مِن المناسب بيانُ ما يجبُ عليهما مِن التَّوبة؛ فالفصلُ محمولٌ على شبهِ كمالِ الاتصال، فكأنَّ سائلًا

(1) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم، والرَّاغب، المُفردات: (ظهر).
(2) الثَّعالبي، الجواهر الحِسان: 5/ 451.
(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 94/ 23، 97، 98، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 331، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 299.

سأل: فماذا أعقبَ ذلك؟ فجاءت هذه الآية مفصولةً عَمّا قبلها؛ إيذانًا بأنَّ الكلامَ قد انتقلَ من سَوْقِ القصَّة وتمهيدِ الحكاية، إلى مَقام الوَعظِ والتَّأديب، والخطابِ المقرون بالتَّرغيب والترهيب؛ قصدًا إلى إصلاحِ ما كان، وتدارُكِ ما وقعَ من زلل، فكان الاستئنافُ بالخِطاب الجليلِ الذي وجَّهه اللّهُ إلى حفصةَ وعائشةَ ﵄[1].

فائدَةُ التَّعبيرِ بأُسلوبِ الشَّرط:

الإثارة والتَّهييج والحـثُّ على الإسراع بالتَّوبة

جاء التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بأسلوب الشَّرط، دون أن يُؤتى بصيغة الأمر الجازم، كما هو الغالب في مواضع التَّكليف، كقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: 31]، بل جاء هذا التَّعبيرُ هنا على جهةِ التَّشريفِ للمُخاطَبَتَين، والتَّلطُّفِ في الخطاب مَعَ مَن يُرجَى تَأثُّرُه، ويُؤمَّلُ منه القبول، ففي التَّعبير بـ (إنْ) أداة للشَّرط نوعُ مِن الإثارة والتَّهييج والحَثِّ على الإسراع بالتَّوبة؛ لتُنبِّهَ القلوبَ الغافلَةَ، وتُثيرَ في النُّفوس رهبةً ورجاءً، يؤيِّده، ويقوّيه تقديمُ التَّرغيب فيها على التَّحذير من العدول عنها إلى التَّظاهُرِ والمُكايَدات، بجانب ما فيه من إقامةِ المُخاطَبتين بَيْنَ الخوف والرَّجاء، ودَفعِهما إلى النَّظر في الحال والمآل، فتُبادران إلى التَّوبة قبل فواتِ الأوان؛ لتستمرّا على التَّوبة، وتبتعدا عَن كُلِّ ما يتناقض معها، فلا تعودا إلى ما كان منهما ولا إلى غيره مَرَّةً أُخرى[2].

دلالة استعمال أداة ﴿إِن﴾:

استعمالُ أداة ﴿إِن﴾، في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ دون (إذا) المقتضيةِ القَطْعَ بوقوع التَّوبة؛ لبيان أنَّ توبَتَهما صادرةٌ عنهما ضِمنَ إطار الاجتهاد البشريِّ، لا العصمة الأكيدة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 356.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 251، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2137.

تعيينُ المقصودِ بضميرِ التَّثنيَة:

تعيينُ المخاطَبتين بالألفاظ الصَّريحة والضِّمنيَّة

الخطابُ بالتَّثنية في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، مقصودٌ به الزَّوجتان الكريمتان: المُذيعةُ والمُذاعُ إليها، فأمّا الأولى؛ فالإشارةُ إليها ظاهرةٌ، دلَّ عليها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾، فهي التي أسَرَّ إليها النبيُّ ﷺ بعضًا مِن حديثه، ثُمَّ أذاعَتْه، فهي المُنَبِّئَة، وقد صرَّح النَّصُّ بالفِعل المُسنَد إليها، وأمّا الثّانية - وهي المنبَّأة - فلم يُصرِّح باسمِها، ولكن فِعل ﴿نَبَّأَتْ﴾ يقتضيها من لزوم معناه؛ إذ لا إنباءَ إلّا بمُخبَرٍ له، ولا إفشاءَ إلّا في سَمْع من يُسرُّ إليه، فكان وجودُها مُضمَّنًا في السّياق، وإن لم يُذكَر تصريحًا، وفي هذا مِن التَّلطُّف في العتاب ما لا يخفى، ثُمَّ إنَّ التَّوبة لم تُطلب من المُنبِّئَة وحدَها، بل شُرِكت فيها المُنبَّأة؛ إذْ كانت شريكةً في سَماع السِّرِّ، وكان عليها أنْ تنهاها عن ذلك، أو أنْ تُخبرَ زوجَها بما أذاعَتْه عنه ضَرَّتُها، فكانتا معًا موضعَ العتاب، ومُستَحِقَّتَيْن للإنابة والتَّوبة، فصَدَرَ الخطابُ إليهما تثنيةً؛ تأديبًا وتعليمًا، وعَدلًا ورَحمةً[1].

سِرُّ تقديم ذِكْرِ الحثِّ على التَّوبةِ على التَّظاهُر:

تعظيمٌ لشأن التَّوبة، وإشعارٌ بأنَّها فرضُ السّاعة لا يُؤخَّر

افتتح الحقُّ سُبحانه المقامَ بتقديم الرَّغبة بذِكر الحثِّ على التَّوبة في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾، على ذكر التَّظاهر في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾؛ لسَبْقِ التَّلطُّف على التَّهديد، على سَنَن الذِّكر الحكيم؛ إذ يُقدِّمُ ما تَأْلَفُهُ النُّفوس، وتطمئنُّ له القلوب، ليفتحَ بها بابَ الإقبال، ويُمهِّدَ السَّبيلَ لقبول التَّوجيه، فَصُدِّر الخطابُ بنداء التَّوبة، ووُعِد بالقبول؛ إنْ هُما تابَتا؛ ترغيبًا في الإنابة، وتحَنُّنًا في الدَّعوة، ثُمَّ أعقَبَه بالتَّحذير البالغ، والوعيد الصّادق؛ إنْ عدَلَتا عن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 356.

التَّوبة إلى الاستمرار في التَّظاهر والمُكايدة[1]، ولأنَّ تقديمَ التَّوبَةِ هو المأمولُ منهما والمرجوُّ مِن أمثالهما.

بلاغة الالتفات من الغَيبة إلى الخطاب:

التَّشريفُ لرسول الله بِعِتابِ نِسائِه لأجْلِه

عَدَلَ النَّظمُ الكريمُ عَن الغَيبة في الآياتِ السّابقةِ إلى الخطاب في هذه الآية، وفي هذا مِن المُبالغة في العتاب ما فيه؛ لأنَّ مَن يُعاتِبُ؛ يتحاشى مواجهة المعاتَب أوَّلًا، حتى لا يَنفِر منه، فإذا قَبِل منه، وبَدَت عليه أمارات الاستجابة؛ توجَّه إليه بالحديث المُباشِر، وعاتبَهُ بما يُريد، فهو أبلغُ في معاتبتهما[2].

كما أنَّ في الالتفات إليهما ضَرْبًا مِن التَّشريف لِرَسول الله بالإقبال على نسائه بالعتاب لأجْله؛ قيامًا عنه بما رُبَّما أزعَجَه لو باشرَهُ؛ حِفظًا لخاطِرِه الشَّريفِ مِمّا قد يُغَيِّرُه[3].

بلاغةُ حذف جواب الشَّرط:

المجازُ بالحذفِ ينقل الذِّهن مِن التَّقدير إلى الاعتبار

حُذِف جوابُ الشَّرط في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، للإيجاز، وتوجيهًا للذِّهن إلى العِبرة، وتقدير المحذوف: (فذلك واجبٌ عليكما)، أو: (فَيَتُبِ الله عليكما)، أو: (كان خيرًا لكما)، غيرَ أنَّ الجوابَ لم يُصرَّح به، بل دلَّ عليه ما بعدَهُ مِن قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؛ إذْ كان ذِكْرُ ميلِ القلوب في موضع تعليلٍ للحثِّ على التوبة، وتنبيهٍ على الموجِب لها، وفي هذا الحذف مِن البلاغة ما لا يخفى، فإنَّه أوقعُ في النَّفْس، وأبلغُ في العتاب؛ إذ جُعل القارئُ أو السامعُ يتفطَّن إلى الجواب مِن سياقِ الخطاب، كأنَّ البيان يقول: (إن كان منكما توبةٌ؛ فقد كان ذنبٌ استوجَبَها)، وأيُّ ذنبٍ أعظمُ من صَغْوِ القلوب عن محبوب النَّبيِّ ﷺ[4].

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2134.
(2) الزَّمخشري، الكَشّاف: 4/ 566، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 570، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 471.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 188.
(4) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 6/ 335، والعكبري، التِّبيان في إعراب القرآن: 1/ 373، وملا علي القاري، أنوار القرآن: 5/ 180.

نوعُ الفاء ودلالتها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾، ليست فاءً رابطةً فَحَسْب، بل هي فاءُ تعليل، جيء بها؛ لبيان أنَّ ميل القلوب عن مقتضى الأدَبِ مع النَّبي ﷺ هو العِلَّة الموجبةُ للتَّوبة، كما يقول القائل: اعبُد رَبَّك، فالعبادة حَقٌّ؛ فالجزاءُ معقودٌ على عِلَّته، ومعنى الكلام: (إنْ تتوبا إلى الله؛ فذلك أولى بكما وأوجَبُ؛ لأنَّ قلوبَكما قد زاغت، ومالت عن محبَّة ما يُحبُّه النبيُّ، وكراهةِ ما يَكرَهُه)[1].

الفاءُ تعليليَّةٌ؛ لِبَيان نتيجةِ إفشاء السِّرِّ مِن مَيل القلوب

نُكتةُ دخولِ حَرفِ التَّحقيق:

أفاد حرفُ (قد) في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ التَّوكيدَ والتَّحقيقَ، وتَقَرُّبَ الماضي مِن الحال[2]، كأنَّ ذلك المَيلَ لم يكن شيئًا قد طالَ عَهدُه، وبَعُدَ، وفيه إشعارٌ بقُرب عهدِ الوقوع، فجاءت (قد)؛ لتُحَقِّقَ وقوعَ المَيل، وتُقرِّبَ زَمَنَه؛ ليكونَ أدعَى للتَّوبة، وأقرَبَ للتَّأثُّر؛ إذِ الذَّنبُ إذا استُحضِر قُربُه في النَّفس؛ عَظُم وقعُه، وسهُلَ رُجوعُ القلبِ منه.

تـقـريـبُ وقـوعِ المـيـل إلى المسارعة بالتَّوبة

بلاغةُ التَّعبير بمفردة ﴿صَغَتْ﴾:

معنى (صغت): مالت، يُقال: صَغَى إليه يَصْغي صَغْوًا وصُغوًّا وصغًا: مال، قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأنعام: 113]، أي: لِتَميل، واختير ﴿صَغَتْ﴾ دون (مالت)، في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾، باعتبار تعلُّقها بالقُلوب، فإنَّ (صغى) غالبًا ما يُستَعمل مع الأفئدة والقلوب في القرآن الكريم، وهو مُتَعَلِّقٌ بالميل المرتبط بالوجدانيّات.

الـصَّـغْـوُ مَـيـلُ القلوبِ

بلاغةُ حَذفِ مُتَعَلِّقِ فِعل ﴿صَغَتْ﴾:

حُذِفَ مُتَعَلِّقُ فِعل ﴿صَغَتْ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾، فلم يقل: (فقد صغت قلوبكما عن الحق، أو إلى

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 52، والمظهري، التَّفسير المظهري: 9/ 340.
(2) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 14/ 10.

الحق)؛ وذلك لاحتمال الفِعل للمُتَعَلِّقَين، وقد حمل جمهورُ المُفسِّرين فعل (صغى) على الميل عن الحَقِّ؛ إذْ مال قلباهُما عَمّا وجَبَ مِن كتمان السِّرِّ، وإكرامِ المصطفى ﷺ، لا سيَّما فيما تعلَّق بخيارٍ اختاره لنفسه، فأحبّا ما كرِه، وكرِها ما أحبَّ، فكان ذلك ميلًا في المحبَّة، وإن لم يكن عن سوء نيَّة، فاستحقَّ التَّقويمَ والعتاب[1].

احتمالُ أن يكون المَيلُ عن الحقِّ وإلى الحقِّ

وذهب بعضُ أهل التَّحقيق إلى أنَّ هذا الميلَ هو ميلٌ إلى التوبة، وإقرارٌ بالذَّنب، واعترافٌ بالخطأ، كما تميل النَّفْسُ إلى الخير بعد زللها[2]، وهو توجيهٌ لطيفٌ بديعٌ؛ إذ الميل المُترتِّب على التَّوبة هو ميلٌ إلى الحقِّ، ويُقوّي هذا الوجهَ المقابَلةُ، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾، وهو الأليقُ بأُمَّهات المؤمنين رضوان اللّٰه عليهنَّ.

بلاغةُ الإسنادِ بَينَ المجاز والحقيقة:

في إسنادِ فِعل الصَّغو إلى القلوب ومجيءِ القلوبِ فاعلًا له، في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾، يحتمل أن يكون مِن باب الحقيقة، ويحتمل أن يكون من قبيل الاستعارة المَكنيَّة التي شُبِّه فيها القلبُ بإنسانٍ يختار، ويوازن بين الأمور، فيميل إلى ما فيه الخير والصلاح، ويبتعد عَمّا فيه الشَّرُّ والفساد، وكلا الاحتمالين يُبرز ما للقلب مِن تأثيرٍ عظيم على كُلِّ أعضاءِ البَدَن، وأنَّه المتحكِّمُ في أفعال البشر؛ لقول النَّبي ﷺ: "ألا وإنَّ في الجَسَد مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ؛ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهيَ القَلْبُ"[3]، ففي إسناد الصَّغو إليه تعظيمٌ لشأنه، وتنبيهٌ على خطورته، وإيماءٌ إلى أنَّ الزَّلَلَ إنَّما يقع مِن اختلال الباطن، لا مِن مُجرَّد فَلتَةِ الظّاهر[4].

الزَّلَلُ إنَّما يقع مِن الباطن لا مِن فلتات الظّاهر

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 188، والرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 570.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 356.
(3) الحديث متفق عليه من حديث النعمان بن بشير ﷺ، يُنظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، بابُ فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لدينِه، برقم: (52)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب المساقاة، بابُ أخْذِ الحَلالِ وتَرْكِ الشُّبُهاتِ: برقم: (1599).
(4) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2136.

بلاغةُ جَمعِ القلوب دون تثنيَتِها:

جَمعُ لفظِ القلوب لجمعِ أحوالِه وتعظيمِ شأنِه

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بصيغةِ تثنيةِ الفاعل ﴿قُلُوبُكُمَا﴾، في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، مع سبقِ تثنية الخِطاب ﴿إِن تَتُوبَآ﴾، ولحاقِ ذلك: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا﴾؛ وذلك لتعظيم شأن القلب؛ إذ هو موضعُ القبول والرَّدِّ، ومَعدِنُ التَّوبةِ والإنابة، فوُضِع الجَمعُ مَوضِعَ التَّثنية، كما قال تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء: 78]، وإنَّما هو داود وسليمان ﷺ، وكذلك فإنَّ المضافَ إليه مُثَنّى، وتَكرَهُ العربُ أن تَجْمَعَ بين تثنيَتين، فَتَصرِفُ الأوَّل منهما إلى لفظِ الجمع؛ لأنَّ لفظَ الجمعِ أخفُّ؛ لأنَّه أشبه بالواحد[1]، "وفي جَمْعِ القلوب جَمْعَ كَثْرَةٍ تأكيدٌ لِمَيل القَلب، بكثرةِ المَعارف، وبما أفادَهُ العتاب مِن الحياء، فصارتا جديرتين بالمُبادرة إلى التَّوبة متأهِّلتَين لها غاية التَّأهُّل"[2]، ويحتملُ الجمعُ أن يكون باعتبار أحوال القلب، أي: فقد مالت أحوالُ قلبَيكُما؛ فأطلقَ المَحَلَّ، وأراد الحالَّ فيه على سبيل المجاز المرسَلِ للعلاقة المَحَلِّيَّة.

بلاغة التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة:

سُموُّ مقام النُّبوَّة، وشرفُ منزلته عند رَبِّه؛ إنذارًا لمَن هَمَّ بمُخالفتِه

التَّعبيرُ بالجُملة الشَّرطيَّة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾، يَدُلُّ على سُموِّ مقام النُّبوَّة، وشَرَفِ منزلته عند رَبِّه، وإنذارًا لِمَن هَمَّ بمخالفته، وإن كان مِن أقرب الخلق إليه، فكانت (إن) أداةَ تعليق، و﴿تَظَٰهَرَا﴾ فعلَ الشَّرط، والجُملةُ المقرونةُ بالفاء دليلُ الجَواب، وسَبَبٌ أُقيم مَقامَه، والتَّقديرُ: (إن تَظاهَرا عليه؛ فلن يعدم مَن يُظاهِرُه اللهُ والملائكةُ وصُلحاءُ المؤمنين)، ولم يُذكر الجوابُ صراحةً، بل أُقيمَ الدَّليلُ مقامه، فجيء بجملةٍ اسميَّةٍ مُؤكَّدة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾، ويجوز أن تكون هي بنفسها الجوابَ كنايةً عَن التَّهديد[3].

(1) المجاشعي، النُّكت: 1/ 501.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 188.
(3) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 225، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 349.

بديعُ المُقابلة بين التَّوبة والتَّظاهر:

إظهارُ التَّفاوت بَيْنَ المقامَين للحثِّ على سلوكِ أشرفِهما

مِن بدائع النَّظم القرآنيِّ في هذه الآية الكريمة ما جاء على سَنَن المُقابلة البليغة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وقوله عَقِبَه: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾، فقد قوبِلَ بَيْنَ التَّوبة والتَّظاهُر، تَقابُلَ الضِّدَّين؛ لإظهار تَفاوت المَقامَين، وتَبايُن الطَّريقين، فجُعِل لكلِّ طَرَفٍ شرطٌ يُبنَى عليه الجزاء؛ ليقع في النَّفس وقوعَ البيان والتَّبيين، ويستقرَّ في القلب استقرارَ اليقين، فإنَّ المُقابلةَ مِن أبلَغِ أساليب الخطاب؛ إذ تُظهِرُ حُسنَ الحَسَنِ بمُقارنته لقُبْحِ القبيح، وتزيدُ الحَقَّ إشراقًا بإزاء الباطل[1].

نُكتة استعمال أداة (إن) دون (إذا):

العبادُ مُخيَّرون في أفعالِهم تخييرًا مطلقًا

استعملَ النَّظمُ الكَريمُ أداة الشَّرط (إن)، في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾، دون (إذا) لِنُكتَةٍ بَليغةٍ؛ إذ أداة (إنْ) موضوعةٌ في الأصل لِما هو مظنَّةُ الوقوع، فجيءَ بها هنا؛ دفعًا لتوهُّم تحقُّقِ التَّظاهُر، واستبعادًا لِوُقوعه بَعد ما سَبَق مِن التَّرغيب في التَّوبة، والوعدِ بالمثوبة، والتَّلويح بِلُطف العِتاب؛ ففي هذا التَّعبيرِ الشَّريف إشارَةٌ إلى أنَّ التَّظاهُر قد صار مَظِنَّةً لا ضرورةً، واحتمالًا لا يقينًا، فناسبَ التَّعبير بما يَدُلُّ على الشَّكِّ؛ لتبقى النَّفسُ الموعوظةُ مُعلَّقةً بَينَ الخَوفِ والرَّجاء[2].

بلاغة الاستعارة في فعل ﴿تَظَٰهَرَا﴾:

بيانُ قوَّةِ المُساعدة وشِدَّتِها، وتصويرُ كيفيَّة حصولها

المُرادُ بالتَّظاهُرِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾: التَّعاونُ والتَّآزرُ، يُقال: ظاهرَ فلانٌ فلانًا؛ إذا أعانَهُ على ما يُريده، وأصْلُه من الظَّهر؛ لأنَّ مَن يُعينُ غيرَه، فكأنَّه يَشُدُّ ظهرَه؛ إذِ الظَّهرُ أقوى عُضوٍ في الجسم، والمُعينُ أو المساعد كأنَّه يشُدُّ بِظَهرِه ظَهرَ مَن

(1) الطّوفي، الإشارات الإلهية: 1/ 646، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2138.

(2) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 157، والبقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 189.

يُعينه، ويُعاونه[1]، فجُعِل التَّعاون بينهما كأنَّه تثبيتٌ وتدعيمٌ، يُشَبَّه فيه المُعينُ قرينَه بمَن يُسنِدُ ظَهرَه إلى ظَهرِ أخيه، فاستُعيرَ الفعلُ؛ لإفادة معنى المعاضدةِ القويَّة، لا مجرَّد الاتِّفاق، وفي هذا تصويرٌ لِشدَّة المُؤازرة، وقوَّةِ المساندة بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعية؛ للدَّلالة على قوَّة المُساعدة وشدَّتِها، ولتصوير كيفيَّة حصولها.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

ولايةُ الله لنبيِّه عِلَّةُ الأمنِ مِن المُتظاهرينَ عليه

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ داخلةٌ في جواب الشَّرط، جاءت لِرَبطِ الجملةِ بما قَبلَها مِن شَرطٍ مُقَدَّرٍ مَحذوفٍ، والتَّقدير: (وإن تَظاهَرا، وتَعاوَنا على إفشاء سِرِّه ﷺ، وإظهارِ ما يكرَهُه، فلن يعدم مَن يُظاهرُه، ويُعاونُه؛ لأنَّ اللَّه ﷻ ناصِرُه، وجِبْريلُ رئيسُ الملائكة المقرَّبين قرينُه ورفيقُه)، فجاءت الفاء؛ لتُبيِّن أنَّ ولاية اللَّه لنبيِّه ﷺ، هي عِلَّة الأمن مِن المُتظاهرين عليه، وأنَّ مقامهُ محفوظٌ بِعَين العنايةِ الإلهيَّة، وإن اجتمعَ عليه مَن اجتمع[2].

وفي حَذفِ جواب الشَّرطِ نَوعٌ مِن التَّهويل الذي يَدفَعُ النَّفسَ إلى أن تَذهَب فيه كلَّ مذهب، وبه يتحقَّقُ المقصودُ مِن البيان[3].

فائدةُ التَّعبير باسم الجلالة:

جاء التَّعبيرُ باسم الجلالة، في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾؛ لتربية المَهابة، ولأنَّه أدْخَلُ في تعظيم الذّات، وأهيَبُ في النُّفوس عند الخطاب، لا سيَّما في مقام التَّرهيب.

فائدةُ تَتابُعِ المؤكِّداتِ وتَعَدُّدِها:

إثباتُ مضمونِ الكلامِ وتقريرُه في نفسِ المُخاطَب

التَّأكيدُ بـ(إنَّ) والجُملةِ الاسميَّة وتوسيطِ الضَّميرِ بَين اسمِ الجلالة والخبرِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾؛ لإثباتِ

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 471.
(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 466.
(3) الجمل، الفتوحات الإلهية: 8/ 44، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 358.

مضمونِ الكلامِ في نَفسِ السّامِع، وتقريرِه في قَلبِ المُخاطَب؛ إذْ نُزِّل المُخاطَبُ مَنزلَةَ مَن يُداخِل قَلْبَه شَكٌّ في النُّصرة، فاقتضى المقامُ كثرةَ التَّوكيد، وفيه مِن التَّخويف ما لا يخفى[1].

بلاغةُ القَصرِ وغَرَضُه:

الإيـــذانُ بـأنَّ نُصرتَهُ ﷺ هي لله تعالى وحدَه

قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾، جاء على أسلوب القصر، بتوسيطِ ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ بينَ المبتدأ والخَبرِ، وهو مِن أبلَغِ أساليبِ التَّخصيص، وأحكَمِها في إيراد المعنى على جهةِ التَّثبيت والتَّوكيد؛ إذْ دَلَّ على حَصرِ الوِلايةِ في جنابِ اللّهِ تعالى؛ نفيًا لما سواه، وإثباتًا له وحدَه، وسيقَ القصرُ - على تقدير وقوعِ الشَّرط- إعلامًا للمخاطَبتَين، وتنبيهًا لسامعي الآية، بأنَّ ولاية النَّبي ﷺ ليست بأيدي أحدٍ مِن الخَلقِ، فلا تُنالُ بمُظاهَرَةٍ، ولا تُنتزَع بتآزُرٍ، وإنَّما هي للّه وحدَه، ناصرُه دونكم، وحامي جنابِه دون سواكم، ففيها إيذانٌ جليلٌ بأنَّ نُصرته صلوات الله عليه عزيمةٌ مِن عزائِمِ الرُّبوبيَّة، وتوَلٍّ مِن حضرةِ الألوهيَّة، لا يُنيبُ فيه أحدًا[2].

دلالةُ إضافة لفظِ (مولى) إلى الضَّمير:

التَّـنـبـيـهُ على إحـاطـةِ الـنَّـبـيِّ بالعنايةِ الإلهيَّةِ والرِّعايةِ الرَّبّانيَّة

أُضيفَ لفظُ ﴿مَوْلَىٰهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾، إلى الضَّميرِ الغائبِ العائدِ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ تنبيهًا على ما أُحيط به مِن عنايةٍ إلهيَّةٍ، ورعايةٍ رَبّانيَّةٍ، تحفَظُهُ في مَغيبِه، وتَكلَؤُه في حُضورِه، وتدفَعُ عنه تظاهُرَ المُتَظاهِرين، وإنْ دَبَّروه خفيةً، وفي صيغة الغَيبة مِن الأدَب ما يُنادي على سُموِّ المنزلة، وفي إضافةِ (المولى) إلى ضميره الشَّريفِ ما يدُلُّ على القُربِ والولاية[3].

بلاغةُ التَّتميم في المعطوفات:

بَعدَ ذِكرِ ولايةِ اللّه لنبيِّه بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾، عَطَفَ عليها

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2138.
(2) السّيرافي، التَّقريب في التَّفسير: 4/ 408.
(3) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 1382.

ولايةُ الله تعالى أصلُ كلِّ ولايةٍ، ولا نُصرة بدون نُصرتِهِ

قولُه: ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾؛ تتميمًا وإعلامًا بأنَّ ولايةَ الله هي الأصلُ في النُّصرة، ومناطُ القوَّة، وأمّا ما سواها مِن تأييدِ جبريلَ وصالحِ المؤمنين والملائكة؛ فزيادةٌ في الإكرام، وتتميمٌ لمعاني التَّطمينِ والتَّثبيتِ، وتطييبٌ لخواطر المؤمنين، وتعظيمٌ لجانب النَّبيِّ الكريم ﷺ، وإظهارٌ للآياتِ البيِّنات، كما في يوم بدرٍ وحُنين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 126][1].

غرَضُ تقديم ذِكرِ جبريل عليه السلام على الملائكة:

التَّنويهُ بِشأنِه، والتَّعظيمُ لِقَدرِه، والتَّذكيرُ بتكرار نزولِهِ بالوحي

قُدِّم ذِكرُ جبريل عليه السلام على سائر الملائكة في قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾؛ لِما لهُ عليه السلام مِن مزيد الفضل، وعظيمِ الشَّرَف، وسامِق المنزلة عند رَبِّه؛ إذْ هو سيِّدُ الملائكة، وأمينُ الوحي، والمبلِّغُ عَن رَبِّ العالمين إلى صفوةِ خَلقِه مِن المرسلين، فكان حقيقًا بالتَّصدير والتَّقديم؛ تنويهًا بشأنه، وتعظيمًا لِقَدْرِه، وبيانًا لِمقامِه عند أُمَّهات المؤمنين خاصَّةً؛ لِمعرفتهنَّ له بمشاهدة تكرارِ نُزولِه؛ إذ هو الذي ما انفكَّ عن بيتِ النبوَّة، يحملُ آياتِ الهُدى، ويُبَلِّغُ شرائعَ المولى[2].

نُكتة عطفِ صالحِ المؤمنين على جبريل عليه السلام:

التَّنويهُ بشأن عِبادِ اللهِ الصّالحين بأن يأخُذوا حُكمَ جبريل في الولاية والنُّصرَة

عُطِفَ صالحُ المؤمنين على جبريل، في قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾؛ تنويهًا بشأنِ عباده الصّالحين مِن أهلِ الإيمان، وإشارةً إلى عظيمِ مَنزلَتِهم؛ إذْ شُرِّفوا بالاقتران في الذِّكر معَ روح القُدُس، وجُعِلوا في عِداد مَن يُناصِرُ رَسولَ الله ﷺ؛ ذَبًّا عن مقامه، وإعزازًا لشأنه، وفي ذلك إلماحٌ إلى أنَّ الله سبحانه قد أحاط نبيَّه بأجنادٍ مِن الظَّهير الجَليِّ (المشاهد)

(1) الجمل، الفتوحات الإلهية: 8/ 44.

(2) المظهري، التَّفسير المظهري: 9/ 343، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 472.

والظَّهيرِ الخَفيِّ (غير المشاهد)، فاجتمع له من النُّصرة ما تُطالعه العَين، وما تقصر دونه الأبصار؛ ليكون في مأمنٍ مِن كيد الكائدين، ظاهرِه وخَفيِّه[1].

دلالةُ الإضافة وبراعتُها، بين التَّصريح والتَّلويح:

المؤمنون الصّالحون هُم أرسَخُ الخَلْقِ في نُصرةِ سيِّد الخَلْقِ

أُضيف لفظُ (صالح) إلى ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ ليكون قولُه تعالى: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، جامعًا بين صفتين عظيمتين وهما الصَّلاحُ والإيمانُ، والإضافةُ مِن باب إضافة الصِّفَةِ إلى موصوفها، أي: (المؤمنون الصّالحون)، ولم يُطلَق الوصفُ على عموم أهلِ الإيمان؛ تنبيهًا على أنَّ العِزَّ كُلَّ العِزِّ، والشَّرَفَ كُلَّ الشَّرفِ، إنَّما هو لِمَن جَمَعَ بَين شَرفِ الانتساب إلى الإيمان، وكمالِ التَّحَلّي بالصَّلاحِ، فَخَصَّهم بهذا الوصفِ الشَّريفِ في هذا المقام؛ إذ هو موطِنُ المعونة على أمر الدّين، وموضِعُ التَّناصر على نُصرة الحقِّ، ولا يَنهَض بأعباء ذلك إلّا من صحَّ إيمانه، وزَكَى عَمَلُه، وخَلُصَت نيَّتُه، فَهُم الصّالِحون مِن بَيْنِ المؤمنين، الذين تصلح بهم الجماعة، وتقوم بهم الحُجَّة، ويشتدُّ بهم أزْرُ الرِّسالة، ويُستعان بهم في مواقع البلاء، ومواطن الابتلاء[2].

ويحتمل قولُه تعالى: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أن يكون لعامَّة المؤمنين الصّالحين، مِمَّن صدق إيمانُهم، وحسُنَ عملُهم، ويحتمل أن يكون المراد به الشَّيخَين، أبا بكر وعمر ﷺ، ووجهُ تَخصيصِهما بالذِّكر أنَّ الخطاب موَجَّهٌ إلى بِنتَيهما عائشة وحفصة، فكان في التَّلويح بذكرِهما زجرٌ بليغٌ، وتهديدٌ رفيعٌ، كأنَّما قيل: (إن تظاهرتُما عليه، فاعلما أنَّ أبويكما لا يكونان معكما، بل هما مِن أنصاره وأوليائه، لا يُسلِمان رسولَ اللّه ﷺ، ولا يَرضَيان أذاه)، والحمل على العموم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 358.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنَّة: 10/ 85.

أظهرُ وأبينُ، والحمل على التَّلويحِ أخفى وأدَقُّ، ولكلٍّ منهما أثَرُه في الزَّجر، ورائِحَتُه في الفهم[1].

فائدة توسيط ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بين جبريل والملائكة:

نُصرةُ سَيِّدِ الخَلقِ مرتبطٌ بالسُّنَن الكونيَّة والعطايا الرَّبّانيَّة

وُسِّط قوله تعالى: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، بَيْنَ (جبريل) و(الملائكة) في الذِّكر؛ لأنَّهم ظهيرٌ للنَّبيِّ ﷺ، كما أنَّ جبريلَ ظَهيرٌ، غيرَ أنَّ مُظاهرَتَه ﷺ مظاهرةٌ معنويَّةٌ بالتَّأييد مِن عند الله، وأمّا الصّالحون مِن المؤمنين؛ فَمُظاهرَتُهم له ﷺ في تدبير شؤون الرِّسالة، ونَشرِ الشَّريعة، وإقامةِ أحكام الدّين بَيْنَ النّاس إلى قيام السّاعة، فَهُم ظهيرٌ في ظاهر الأرض، كما أنَّ أولئك ظهيرٌ مِن عالَم الغيب[2]، فَذِكرُ النّاصِرين في عالَم الشَّهادة بَين النّاصِرين في عالَم الغيب، من التَّعليم البديع، بأنَّ السُّنَنَ الكونيَّة أصْلٌ في قيام الحياة الدُّنيَويَّة، وأنَّ المُسَبَّبات إنَّما تنشأ عن أسبابها، لا عن أُمنيّاتها، وأنَّ العطايا الرَّبّانيَّة لا تُعارض العملَ بالسُّننِ الكَونيَّة.

بلاغةُ التَّعريض ودلالةُ التَّلميح:

التَّأديبُ بالتَّعريض مِن سُنن البلغاء في خطاب العقلاء

ذكَرَ بعضُ علماء البيان أنَّ في تخصيص الصّالح مِن المؤمنين دون عمومهم، إشارةً لطيفةً وتعريضًا دقيقًا، يُفهَم منه أنَّ المخاطبتَين - على تقدير وقوع الشَّرْط - ليستا من الصّالحين؛ إن تظاهرَتا، وفي ذلك تلويحٌ لا تصريحٌ، وزجرٌ في صورة نُصحٍ على سنن البلغاء في التَّأديب بالتَّعريض دون التَّصريح[3].

نُكتة العَطْفِ بِذِكر الملائكة على ما تقدَّم:

ترفيعُ قَدْر النَّبيِّ المصطفى ﷺ بَينَ أهل الأرض والسَّماء

قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٞ﴾ عَطْفٌ على ما قَبْلَه، وفيه مزيدُ تعظيمٍ لِشَأنِ النُّصرة، بإظهارِ كثرة النّاصرين وتعدُّد صفوف المؤازرة، وفي هذا العطفِ الشَّريفِ ترفيعٌ لِقَدْر النَّبيِّ المصطفى ﷺ،

(1) الواحدي، التَّفسير البسيط: 22/ 16، والنَّسفي، التَّيسير في التَّفسير: 14/ 482.
(2) المنصوري، المقتطف: 5/ 275، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 267.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 358.

وتنويهٌ بمحبَّة أهل السماوات له؛ إذ لم يقصُر الله نُصرَتَه على جُند الأرض، بل ضَمَّ إليهم جُند السَّماء؛ ليُعلم أنَّ نُصرَته ﷺ مُؤَيَّدةٌ بالعناية الإلهيَّة مِن فَوق سبع سماوات، وأنَّ ملائكةَ الرَّحمن شهِدوا له بالظَّهير، فكان ذلك أعظمَ في الشَّأن، وأبلغَ في البرهان، وأجلى في تمكين مقامه بين أهل الأرض والسَّماء[1].

فائدَةُ تعدُّد المعطوفات وتنوُّعها:

إنذارُ المتظاهرين على النَّبيِّ الكَريم

تعدُّدُ المعطوفاتِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، مِن شَأنِه أن يُلقيَ في قُلوب المُخاطبَتَين ما يصدُّهم عن مُجرَّد التَّوهُّم بالتَّظاهر على النَّبي الكريم ﷺ؛ لكونهما مِن أحبِّ زوجاته إليه، كما أنَّ في جمع هذه المعطوفات إفزاعًا بعد إفزاعٍ، وإنذارًا بعد إنذارٍ؛ لتُقطَعَ بذلك ألْسُنُ المنافقين عن الطَّمَعِ في إضعاف أمر النُّبوَّة؛ إذ تكفي في نُصرته ولايةُ الله ﷻ، ومع هذا فقد زيد عليها جبريلُ الأمين، ثُمَّ خُلَّصُ المؤمنين، ثم جُند السَّماء مِن الملائكة أجمعين، فإنَّ مَن ظاهره اللهُ وملائكتُه وجبريلُ وصالِحُ المؤمنين، لا تُرجى عليه يدُ بَشَرٍ، ولا يُظَنُّ به وهَن، وفي ذلك قطعٌ لأطماعِ مَن ظَنَّ أنَّ النَّبي ﷺ قد تُشغِلُه شؤونُ الأزواجِ عن مقامِ التَّبليغ[2].

فائدةُ التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿بَعۡدَ﴾:

البعديَّةُ بعديَّةُ رُتبةٍ ومقامٍ، قُصِدَ بها تفخيمُ شأنِ مُظاهرة الملائكة

يحتمل المرادُ بالبعديَّة في قَوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ احتمالات مُتَعَدِّدَة، فإمّا أن تُحملَ على بَعديَّة الرُّتبة والمقام لا البَعديَّة الزَّمانيَّة، قُصِدَ بها تفخيمُ شَأنِ مُظاهرة الملائكة، وتعظيمُ منزلتهم في النُّصرة، حتَّى لا يتوهَّم متوهِّمٌ أنَّ تَأخُّرَ ذِكرِهم دليلٌ على تأخُّر فَضلِهم، وبيانُ ذلك أنَّ مُظاهرة الملائكة، وهم جُند

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 358.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 349، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 158، والزُّحيلي، التَّفسير المُنير: 28/ 309.

السَّماوات، أعظمُ وقعًا وأشَدُّ بأسًا مِن مُظاهرةِ صالِحِ المؤمنين، كما أنَّ جمْعَهُم مع جبريل أتمُّ نُصرَةً، وأكملُ ظهيرًا مِن نُصرَتِه وحدَه؛ وفي هذا التَّعبيرِ الجليلِ مِن التَّيئيس لِمَن يَهُمُّ بالمكايدة، والتفزيعِ لِمَن سَوَّلَت له نفسُه المعارَضة، ما يليقُ بجلال المقام؛ إذ لا يُتصوَّر أن يُنال مِن نَبيٍّ هذه نُصرَتُه، ومَن وراءَهُ هؤلاء الظُّهَراء[1].

ويحتمل أن تكون البَعديَّةُ هُنا بَعديَّةً في الذِّكْرِ لا في الزَّمان، كقوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [القلم: 13]، أي: مع ذلك، وفائدةُ إيراد الملائكة في الذِّكر بعد ذِكْرِ الله وجبريل وصالح المؤمنين، أنَّ أولئك قد ظهرت آثارُ تأييدهم بيِّنةً للعيان، فالله ﷻ يُؤيِّده بالوحي، وجبريلُ أمينٌ عليه، والمؤمنون يُجاهدون بَيْنَ يديه، فجاء ذِكرُ الملائكة لتذكير المخاطَبتَين بعظيم أثرهم، وإن خفيَ عن الأبصار، كإمدادهم يوم بدر، واستغفارهم له في السَّماوات العُلا، وهو تأييدٌ باطِنٌ، فلا يُتَوَهَّمَنَّ مِن تأخير ذِكرِهِم أنَّهم أدنى مرتبة مِن جبريل أو مِن صالح المؤمنين[2].

رفْعُ قَدرِ الملائكة مِـن الإدمـاجِ الخَفيِّ في سياق نصرة النبيِّ

وقد يُحمل تأخيرُ ذِكر مظاهرة الملائكة عليهم السلام على وجهٍ مِن وجوه البلاغة، وهو دفعُ ما قد يُفهَم مِن التَّقديم على أنَّه تفضيلٌ في المنزلة، فجيء بالملائكة بعدَ ذِكر صالِحِ المؤمنين، لا لأنَّ منزلتَهم أدنى، ولكن تنويهًا بمكانتهم، وتنبيهًا على أنَّ مُظاهرتهم أجلُّ شأنًا، وأبعدُ مقامًا، فلا يُظنُّ أنَّ التَّرتيب ترتيبُ تفضيل، بل هو ترتيبٌ يُقصَد به التَّخصيص والتَّفصيل، فكأنَّ الخِطاب يقول: (بعد أنْ عُرِف أنَّ جبريل وصالح المؤمنين في جُملة الأنصار، فاعلم أنَّ جُند الملأ الأعلى من بعد ذلك كُلِّه، هُم ظهيرٌ له عليهم السلام)، فجاء هذا التَّرتيب؛ ترفيعًا لقدرهم، وجبرًا لما قد يوهمه الفصلُ بينهم وبين جبريل؛ إذ هو منهم وفيهم[3].

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 54.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 359.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 267.

غَرَضُ التَّعبير باسم الإشارة للبعيد:

التَّنبيهُ على رِفْعَةِ قَدْرِ المُشارِ إليهم والتَّأمُّلِ في قَدْرِ أولئك الأنصار

﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، اسمُ إشارةٍ عائدٌ إلى ما تَقَدَّم مِن ذِكْرِ مُظاهَرَةِ الله تعالى، وجبريلَ، وصالِحِ المؤمنين لنبيِّه ﷺ، وقد جيء باسم الإشارة البعيد على ما فيه مِن ترفيعٍ وتهويلٍ؛ تنبيهًا على رِفْعَةِ قَدْرِ المُشارِ إليهم، وتعظيمًا لشأنِ نُصرتهم، وإشعارًا بأنَّ منزلتَهم في النُّصرة ليست مِمّا يُقارَب، أو يُدانى، بل هي رفيعةُ المقام، وفي هذا التَّعبيرِ مِن لطيفِ الإشارةِ ما يُرادُ به حَثُّ السامع - لا سيَّما مَن خوطب بهنَّ - على التَّأمُّلِ في قدرِ أولئك الأنصار[1].

نُكتَةُ تنكيرِ لَفظِ ﴿ظَهِيرٌ﴾:

نُكِّرَ لَفظُ ﴿ظَهِيرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾؛ تفخيمًا لشأن المُظاهرة والنُّصرة، وتكثيرًا لصوَرِها؛ إيذانًا بأنَّها نُصرةٌ عظيمةٌ لا تُحدُّ، ولا تُقاسُ بمُظاهرة البَشر.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة ﴿ظَهِيرٌ﴾:

الإشارةُ إلى قوَّة النُّصرة وعظيمِ المؤازرة

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿ظَهِيرٌ﴾ بصيغة (فعيل)؛ لما فيه مِن المُبالغة، فهو دالٌّ على قوَّة النُّصرة وشِدَّة المؤازرة، وهو بمعنى: (المُظاهِر)، أي: (المُعين المؤازر)، وهو مأخوذٌ مِن الظَّهر، كأنَّهم يُسنِدونه، ويَشُدّون ظَهرَه، لا يَدَعونه وحدَهُ في مقام المدافعة.

غرَضُ إفراد لفظ ﴿ظَهِيرٌ﴾:

مظاهرة الملائكة في النُّصرة كفردٍ واحد

أُفرِدَ لفظ ﴿ظَهِيرٌ﴾ - مع تعدُّد الملائكة - إمّا على تأويل جماعتهم بالفوج الواحد؛ إذ هم في النُّصرة كأنَّهم ذاتٌ واحدةٌ وظهرٌ واحدٌ، وإمّا جريًا على سنن العرب في إفراد (فعيل)، الذي هو بمعنى (فاعل)، كقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: 69]، وكثيرًا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 359، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2142.

ما يأتي (فعيل) للمفرد والمثنى والمجموع بلفظ المفرد، فكَأنَّهم في المظاهرة يدٌ واحدة على من يُعاديه[1].

نُكتةُ حَذفِ المتعلّق بلفظِ ﴿ظَهِيرٌ﴾:

مـراعـاةُ أحـوالِ المخاطَبين أدبٌ قـرآنيٌّ ونـهـجٌ هِدائيٌّ

لم يَذْكُرِ النَّظمُ الكريمُ مُتعَلَّقَ قوله تعالى: ﴿ظَهِيرٌ﴾، فلم يقل: (ظَهيرٌ عليكما) أو (عليهما)، وذاك مِن دقائق النَّظم القرآنيِّ؛ إذ سُكِت عن التَّصريح بالجهة المُعان عليها؛ ليبقى الوعدُ بالمُظاهرة عامًّا على إطلاقه، يشمَل تظاهُرَهُما وتظاهُرَ غيرِهما، كما أنَّ في هذا الإطلاق رعايةً لحال المخاطَبين، وبسطَ السّتر، وتكريمَ المقامِ النَّبَويِّ[2].

بلاغةُ الجِناس الاشتقاقيِّ:

الإشـعـارُ بـأنَّ الجزاء واقعٌ مِن جنس العمل

بينَ لفظِ ﴿تَظَٰهَرَا﴾ ولفظ ﴿ظَهِيرٌ﴾ جِناسٌ اشتقاقيٌّ، وفيه إشعارٌ بأنَّ الجزاء واقعٌ مِن جِنس العمل، وأنَّ مَن تظاهر على النَّبيِّ ﷺ وجَدَ في مُقابِلِهِ مظاهرةً أعظَمَ، ونَصرًا أقوى؛ مِن جنود الأرض والسَّماء، لا تُدانيها مظاهرةُ بَشَرٍ، فمهما بَلَغَ تظاهُرُهما؛ فلن يُعادلَ مُظاهرة الملائكةِ وجبريلَ وصالِحِ المؤمنين مع الرَّسول الكريم[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصَّغو والمَيل:

المَـيـلُ عـامٌّ، والصَّغوُ خاصٌّ بالوجدانيّات

الصَّغوُ يُستَعمل في القرآن مع الوجدانيّات، فهو مَيلُ القلب والفؤاد لسماعِ أمرٍ، أو مَيلُ القلب إلى أمرٍ، كما قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأنعام: 113]، وقال: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 10/ 211، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 359، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 472.

(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2142.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 359.

﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، والإصغاء: الميلُ إلى جهةٍ تكونُ هي محورَ الاهتمام، أو الاستماعُ بعنايةٍ لجهة الصَّوت، أو الاشتغالُ بمَن يهمُّنا أمرُهم، كما تعني الهَوَى مع الغيرِ الآخر[1]، وأمّا المَيلُ؛ فهو أعمُّ مِن ذلك.

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللُّغة، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسانُ العرب: (صغا).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والستون،
سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 62 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-640-02-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 62 : المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-640-02-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5378070 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"